العوامل الجغرافية في عمران الشرق

محاضرة نقيب الفيت في باريس

ايها الافاضل : الشرق هو مهد الحضارة باتفاق الباحثين المدققين ، من علماء التاريخ والجغرافية والانوام . واقصد بالشرق الشرقَ الادنى وقسماً من الشرق الاوسط اللذين تمتد أرجاؤها من بادية ليبية الى وادي تركستان ؛ واحسن من هذا البلاد التي منحتها الطبيعة اهمّ ينابيع الحياة التي ما تفتأ يردد ذكرها التاريخ . أعني ينابيع الحياة هذه — النيل والفراتَ ودجلة وقارون وسيحون وجيحون المنصبين في بحر آرال وبنجاب والانهر الخمسةَ التي يتألف منها نهر السند العظيم . تجري هذه الانهر في منطقة ، لا تزيد درجة عرضها من الشمال على اربعين درجة ، ولا تتجاوز خط السرطان من الجنوب . تحيط بها البوادي من كل صوب ، وتنساب مياهها في هذه القفار ، انسياب العروق على ظاهر اليد ، فوق سواد من الطمي الذي تركهُ على جنباتها وعند مصباتها الفيضان . ومن هنا تشابه زائد في اقاليمها ، وتقاربٌ في تربتها وخصبها . فالاقليم على درجة من الحرارة تساعد على نمو النبات ونضوجه ، بسرعة تسمح للانسان والحيوان أن يستفيدا منهُ ، قبل مداهمة الامطار او فيض الانهار . وتربتها من حيث المجموع في مجموعة من دسم البلاد الاستوائية التي تجرد الارض ، باطراد انصبابها وغزارتها من المواد المخصبة المكنوزة فيها . فذلك وقى بُعدُ هذه البلاد عن خط الاستواء وعن البحار العظيمة ، تربتها من الفقر ، وحفظ تركيبها مجفظ المواد العضوية التي حملتها اليها الانهر العظيمة ، وما ادخر في جوفها من المواد المتحللة كالكلس والبوتاس والنيتري التي سفتها اليها الرياح ، او جرها السيل .

جذبت خصوبة هذه البلاد اليها ، منذ عهد يصعب تقديره ، شتى البطون والعشائر الفقيرة . واغتنم بركتها وتقارب مواسم النضوج والاثمار فيها ، من التروح الى بقعة اخرى من الارض ، طلباً للمرعى او للقنص . فاعتادوا عادة المكوث والاقامة في دار واحدة ، ولجأوا الى استزراف اكف الارض ، وخزن محصولها يقتاتون به ، ايام ركود الطبيعة وموات النبات . فدفعتهم الحاجة الى الحيطة والتدبير ، وسطعت في اذهانهم انوار التبصر والتفكير . هذه اول خطوة من خطى الحضارة في العالم : الحضر بعد البداوة . لانها اصطفاء بعض النباتات البقلية والحضرية التي نأكلها اليوم ، وفلاحةُ الارض وتسميدها ، واستخدام

الحيوانات التي تعين هذا الزارع الجديد على حرث الارض والنقل والجرّ

ظلّت الشعوب الاولية واقفة عند هذا الحد من الحضارة مدة طويلة من الزمن، قبل ان تصل الى ذلك المستوى من الرقي العقلي الذي استطاعت معهُ بناء الاقنية العظيمة والسدود، ورفع الهياكل المؤبدة والقصور، واتقان اساليب الصناعة والزراعة والموسيقى والشعر، وسنّ السنن القويمة والتفنن في طرق اللهو والمسرة والهناءة

لم تتحقق هذه الآثار الا بعد اجيال طويلة وحروب، بقيت في خلالها كل جماعة من الجماعات كالقوم في مصر والممالك الصغيرة في كلدانية وعيلام، آمرة ناهية على نفسها مستقلة في قراها. لان تحقيق مثل هذا، منوط باتحاد الوف مؤلفة من الايدي، يعيها الى العمل حسن التآزر والنفع العميم. يقول بهذا الصدد العلامة الجغرافي البيزه ريكلوس Elisée Reclus في بحثهِ عن العراق: « إن سكان شواطىء النهرين، يرجعون بتاريخهم الجغرافي الى عهد ذلك الفيض العظيم الذي دعوهُ بالطوفان، ونقل خبره عن اقاصيصهم في التوراة حرفاً بحرف. ويبدأ تاريخهم السنوي الاصلي قبل اربعة آلاف سنة من يومنا هذا. ولكن لسنا ندري كم مرت من آجال وقرون، قبل هذا الوقت الذي وسعهُ العد والحساب، على سراتة هذه الاراضي واستمرارها، من لدن تلك الطوائف المختلفة كالسبت والطورانيين اقدم البشر والايرانيين والساميين، وسكان شبه جزيرة تلمون او البحرين! . ما فتئ يعمل عامل التمازج والاحتكاك بهؤلاء الجماعات المختلفة، حتى اختلطت اديانهم، وعاداتهم واوضاعهم بعضها ببعض، فتألفت من مجموعها وحدة قومية في العراق »

هذا مثال ايها الافاضل، ينطبق على كل بقعة من بقاع الشرق جذبت بهجتها الى حضنها شتى الاقوام المتسترة، كما يجذب الضياء في حلكة الليل الفراش. هذا نصيب مصر والعراق، والهند وبقربان، والهند والصين، من اختلاف جرثومة الاقوام التي سكنتها فيجدر بنا ان نصرح بعد هذا، بان الحضارة الشرقية ليست وليدة بقعة واحدة من الارض ولا هي حكرة قوم واحد، مستقل بلغتهِ وعنصرهِ ومزاياهُ. بل ازيد على ذلك واقول: يستحيل على قوم منفرد بذاتهِ ان يأتي بحضارة كاملة تظل خالدة على مرّ الايام. هذه اقوام جزر المحيط الكبير، لم يقفوا عند حدهم من التوحش والهمجية، الا لتأخي بعضهم عن بعض وانزوائهم في جزرهم. وهذا مثال المدنية الاوربية الحديثة التي لم تتقدم بهذه السرعة الا لاحتكاك بعض اقوامها ببعض، وتكافؤ افكارهم ومخترعاتهم. يقول الجغرافي الشهير فيدال دولابلاش واضع اساس المذهب الجغرافي الحديث «لا نكرّم امة من الامم الكبرى اذا اعتبرناها مستقلة بحضارتها عن غيرها، منفردة بمزاياها. فقد تضمحلّ هذه

الغزاة ، اذ لم تنضب من حين الى حين موارد جديدة من القوة والنشاط »

هذا الظن أن قد لمسنا سر تقدم الحضارة الشرقية في العصور الغابرة ، وسر تأخرها في آن واحد . بقي علينا ان نبين ما كان للعوامل الجغرافية من الاثر في احتكاك الشرقيين واختلاطهم بعضهم ببعض ، عن طريق التجارة والمهاجرة والحروب . ويحسن بنا قبل ان نخوض هذا البحث ان نحدد دائرة موضوعه ونحصرها في اهم المناطق التي كان لها الاثر العظيم في سائر البلاد الشرقية . ومن اهم هذه البلاد مصر والشام والعراق

***

تنكشف مصر شمالاً لتجارة البحر المتوسط ، ويصلها من الشرق بلاد العرب وبالشام البحر الاحمر وشبه جزيرة سيناء ، ويفصلها عن القارة الافريقية من الغرب والجنوب بوادي ليبية والنوبة . فتصلها هذه البحار الضيقة فدافي سواحلها وقلة اخطارها بأنية : وتفصلها تلك البوادي الواسعة عن افريقية ، لجفافها وكثرة مخاوفها ، مع فقر البلاد التي وراءها او تأخر حضارتها . فلذلك اتجهت مصر من اقدم العصور نحو الشرق ، ودفعتها مصالحها الاقتصادية والسياسية الى التوسع في انحاء جزيرة العرب وسورية والعراق ، كما انها كانت عرضة لغارات الامم الشرقية الآسيوية اكثر من الامم الافريقية . ولهذا نرى آثار الدم السامي والآري والمتولي غالبة على آثار الدم الحامي حتى في سكان القسم الجنوبي منها . اريد بذلك سكان مصر العليا فقط لان سكان السودان تغلب فيهم آثار الدم الحامي والزنجي العراق يشرف على خليج البصرة المتجه الى بلاد الهند والبحرين . يربطه وادي الفرات بسهول آرام وبالبحر المتوسط : ويدلل وادي قارون على تجارته انجاد بلاد فارس ، ويصله وادي دجلة بالجزيرة العليا وارمينية وكردستان . فكل من هذه الاودية ، وخليج البصرة ، وسهول بادية الشام التي تكثر فيها مجامع الماء والآبار ، عروق للتجارة وسارح لمراكب البر والبحر ، مصدرها وماربها مدائن بابل وآشور ، تلك البوتقة التي انصهرت فيها ، عشرات من سلائل المدنيات المختلفة ، ومئات من الاقوام

سورية هي اداة الوصل بين مصر والعراق . قبضت يديها من الشمال ، على تعاريج نهر الفرات . وتشبثت قدماها من الجنوب ، بأضلاع ذلك المثلث المؤلف من شبه جزيرة سيناء التي تربطها بمصر . وفتحت صدرها وفغرت فاها لتجارة البحر المتوسط ، وقلبت ظهرها للبادية تعرضه لصدمات سكانها ، بينما هي تتصرف وتتحكم بموارد البحر . لذلك انصرفت الاقوام التي سكنت سواحلها الى الملاحة ، وتمسكت بطريق وادي الفرات ، ولم تقطع يوماً من الايام علائقها التجارية بمصر . وقد دعا توسط سورية بين العراق ومصر

إلى ان تكون مسرحاً لمعارك الامتين ، ومراً لجيوشها ، وولاية تتناوب عليها سيادتاها ، كما انها سادت على البلدين في بعض الاحيان

مصر والعراق ، قطبان استقرت فيهما قوتا الجذب والدفع ، وتواصلا فيما بينهما . فجذبا في ابان ضعفهما ، الى صدرهما ، اخلاط الامم المجاورة ، ودفعا في اوان قوتهما الى الفتح جيوشاً تخضع لحكمهما سكان البلاد المناخة مع تنازع بينهما وقتال . فترجح مرة كفة مصر وتهبط اخرى كفة العراق ، حتى وقعنا كلتاهما في قبضة الامم الآرية والمغولية التي انحدرت من اعالي انجاد فارس والاناضول . على ان نصيب مصر من غارات هذه الامم لم يكن ليقضي على اهميتها ووحدتها الفرعية التي تأسست منذ عهد السلالات الاولى فقد بقي فيها بقية من الثروة والمدنية على الرغم من توالي الجيوش المستولية وغارات الاقوام الصغيرة التي ليس لها غاية ما سوى النهب والسلب . فبوادي افريقية التي تحيط بها من الغرب والجنوب ، كفت عنها شر الامم البدوية والزنجية . وقد حماها البحر المتوسط في اثناء الشدائد من هجمات الامم الساحلية ، كما مهد لها وسائل التجارة في ايمان السلم . وحفظتها شواطئها على البحر الاحمر لصعوبتها وجردها ، وبعد وادي النيل عنها . فباب مصر الوحيد ، هو ذلك الساحل الضيق الذي يمتد بين دلتا النيل وفلسطين . فمن هذا الدهليز تسربت اليها جيوش الفاتحين . على ان هذه الجيوش ، كثيراً ما تكون منهكة بما عانته من الشدائد ، في اجتياز سهول الشام وجبالها ، وفتح مدن سواحلها الحصينة التي حملها الغرور مراراً على رفض كل معاهدة لا تخدم مصالحها التجارية . فتكون اساطيلها ، على حالة سخطها ، مانعة لزحف تلك الجيوش بسهولة على مصر . فمقاومة صادقة يقوم بها المصريون في وجه عدوهم المنهك تكفي لرد غارته وفل جيوشه

واما العراق فسهول ممتدة كالكف ، تشرف عليها من الشرق والشمال ، جبال فارس والجزيرة العليا التي تحفها جبال كردستان وارمينية والقوقاس (او طوروس) . وهي سوكولة لرحمة البادية من الغرب والجنوب . لان بوادي الشام ونجد ، لا تشبه بوادي افريقية المحيطة بمصر . فهي بالاحرى سهول على شيء من الخصب ، ينبت فيها العشب بعد مداهمة الامطار ، وتقطنها قبائل غنية بقطعانها ، كثير عديدها . زد على ذلك فقر العراق بالحجارة والصخور ، تلك المواد الابتدائية اللازمة لبناء الاسوار والقلاع والحصون في كل وقت. مع ان مدائن العراق ومعاقلها ، كانت تبنى بالآجر الذي يحتاج جبله وطبخه ، الى مدة من الوقت ومهارة في الصنع . وفوق هذا وذاك ، كان جريان دجلة والفرات ، ضمن بعض الشرائط الطبيعية ، مما يمهد للعدو وسائل الفتح : وهو بعد ان يتطلق دجلة والفرات

من احضان واديها على مقربة من سامرا وحيث ، تحفها من الجنبين سدود معرمة من التراب ، تحمي مياهها أن تتكفىء يمنة ويسرة وشمالاً ، لان سوية المياه ، تعلو سوية الاراضي المجاورة ، لارتفاع مجرى النهرين ، بما يرسب في قراريها من الطين والنضار . فما هو الا خرق او فجوة صغيرة على حرف النهر ، حتى تتوسع شيئاً فشيئاً بتأثير ضغط الماء ، فيتسرب منها النهر برمته ، ويحيد عن مجراهُ القديم ، ويعمُّ فيضهُ السهول والبقاع . كل من قرأ التاريخ القديم يذكر الحيلة التي احتالها الفرس لفتح مدينة بابل . فقد أمر كسرى بهدم سدود الفرات ، ففاضت مياههُ على الاراضي المجاورة ، وحادت عن مجراها الذي كان يخترق المدينة . فمنع عنها الماء ، وهدد الزرع بالفساد ، وباغتها بعد ذلك من الفجوة التي تركها مر النهر من تحت السور . لم يكن كسرى الكبير الفاتح الوحيد الذي جرد هذا السلاح في وجه العراق . فقد فعل فعله كل فاتح قبله ، وحذا حذوه كل فاتح وجه اليها الجيوش من بعده فمنهم من اعاد المياه الى مجاريها ، والزراعة الى زهوها فنمت وازدهرت في عهدهم المدنية . ومنهم من اهملها ، فضلّت المياه في الجداول والشعاب ، وكثرت المستنقعات ، وفسدت بعض الاراضين وجف البعض الآخر ، وتقهقرت الزراعة وخيم البؤس والفقر فجلا عنها الناس الى ديار اخرى دانية او نائية طلباً للامن والعاش

لمثل هذه الاسباب الطبيعية ، عاشت مصر الى يومنا واندرست آثار الحضارة والعمران في العراق

***

كانت الحروب التي اجتاحت مصر وسورية والعراق على نوعين . فمنها ما يرمي الى النهب والسلب والفتح المجرّد لتوسيع الملك ونشر السيادة ، دون كثير من الاهتمام بشؤون هذه البلاد . ومنها ما كانت غايتها التوطن والاستقرار . فكل من غارات جنكيز وتيمور لنك ، والقرامطة وبني هلال ، لا تكنُّ وراءها غاية ما سوى النهب والسلب والقتل والتدمير . وكل من وقعة قرسال بين الاسكندر والفرس ، ووقعة القادسية بين سعد والفرس . ووقعة اليرموك بين خالد والروم ، كانت ترمي الى التوطن والاستقرار . لذلك ساد في عهد هؤلاء الامن ، وزهت الحضارة وراجت سوق التجارة ، وتقدمت الصناعة والزراعة والعلوم

منذ الفي وخمسمائة عام . اي منذ انحدت في الشرق شتى الاقوام السامية ، وممالكهم الصغيرة التي ضمَّ بعضها الى بعض بصلة من الصلات الاقتصادية والتجارية فالفت اتحاداً كبيراً ودولاً عظمى ، الى يومنا هذا ، شهدت هذه البلاد (مصر وسورية والعراق) من المعارك الدامية ما ذهب بنفوس الملايين من الناس على ان الحروب التي ولّدها تنازع ابناء أشور ،

وكلدان ؛ وآرام ، ومصر على السيادة ومراكز التجارة ، لم تكن قاضية مبتة . فقد كان بينهم على الرغم من فظائعهم بالحرب شيء من التفاهم والتعاون آناء السلم على احياء الزراعة والصناعة وتسهيل اسباب التجارة ، اذ كانت غايتهم في الحياة واحدة وافكارهم ولغاتهم وعاداتهم ومعتقداتهم متقاربة متشابهة . ما زالت هذه الامم السامية في تطاحن وجدال بضعة عصور حتى اعيوا وتلاشت قواهم . فملوا الحروب وسئموا القتال ، فنبه بعضهم طمع الشعوب الآرية وكان في لغات هؤلاء ومعتقداتهم وعاداتهم ما يفرقهم بعض التفريق عن الاقوام السامية فتكفأت جيوشهم من جبال فارس وارمنية يقودها المادیون مرة والفرس مرة ، ومن جبال القوقاز وانجاد آسية الصغرى يقودها المكدونيون تارة والرومان تارة اخرى

لم يصرف الفرس كل جهودهم الى احياء البقاع الخصبة من الشرق . كلفوها من الفرائض فوق ما بذلوا لها من العناية ، فظلت تعل لهم النكال بينما هم يشتغلون عنها بفتح البلاد الجبلية في آسية الصغرى ، واوربة والهند ، لتعرفهم باحوالها ولصلتهم الزرقية بسكانها

تلا الفرس المكدونيون ، وكان كيرهم الاسكندر على غاية من الدراية وسعة النظر . فأحب أن يرجع عهد بابل القديم ، وكان يجد في نفسه من القوة والكفاية ما يكفي لاحياء بابل وحمايتها وسط تلك السهول . فيجعل منها حصناً حصيناً ، ومن بقاعها وغيطانها جنة فريدة على وجه الارض . عرف الاسكندر ان مثل هذه البلاد التي حوت كل شرائط الثروة بخصبها ، وغزارة مياهها ، وموقعها التجاري في ملتقى الطرق البرية والبحرية ، لا يمكن ان تزهو بروعتها ؟ إلا اذا كانت مقراً لحكمه ، وموضعاً لجده واهتمامه . فبدأ بتسمير السدود وبتنظيف مجرى الفرات تسهيلاً لسير السفن . وقد بنى لها ، قرب عاصمته ، حوضاً واسعاً يلجأ اليه حينما تهبط مياه النهر

مات الاسكندر فتياً وماتت معهُ خطتهُ . وكلف خلفاؤهُ السلوقيون بمناخ الشام ، وعصبة جبالها ، وعذوبة مياهها السلسالة . فهجروا العراق وحرّها ليقيموا في انطاكية والسويدية . فأزدهرت في عهدهم الشام ومصّرت فيها اجل الامصار . ولكن اهملت العراق وظلت مدة ثلاثة اعصر ، ساحة جدال بينهم وبين قبائل خوارزم وخراسان من الترك والفرس . ولما خلف الرومان السلوقيين انفصلت العراق عن الشام فكانت في اغلب الاحيان تحت حكم الفرس . وقامت فيها دويلات صغيرة من العرب كالمناذرة لا تقوى على صد هجمات الفرس والرومان ، وظلت جيوش الطرفين تكتسحها حتى ظهور الاسلام

لما فجأ العربُ الفرس في العراق ، والروم في الشام ، كانت قد انهكت الطرفين حربٌ شعواء اطردت وقائعها منذ سبعين عاماً . هُدّمت في خلالها اكثر المدن الشامية

والعراقية والفارسية ، ولم يبق من آثار الحضارتين الفارسية والبزنطية الا مظاهر البذخ ، على أساس واهٍ من الفقر والاستبداد . افاق مع دولة العرب حظ مصر والشام والعراق برهة من الزمن . فأنهت الزراعة من غفلتها ، وهبَّت التجارة والصناعة والعلوم من رقادها ، وازدهرت العراق خاصة في عهد بني العباس مجدها . حقق المنصور أحلام الاسكندر : فبنى السدود الاشورية والكلدانية ، واصلح الفيَّ ونظف مجاريها ، وجعل من بغداد بما شدَّ ورفع حولها من الاسوار المنيعة والابراج ، مدينة السلام ، وبلغ عدد سكان العراق في عهد الرشيد اربعين مليوناً على التقريب

لم يطل عهد العرب في حكم البلاد الشرقية حتى بدأت حركة الاقوام الطورانية من شرق آسية الى غربها . فاجتازت قبائلهم انجاد فرس . وانصبت على آسية الصغرى والعراق ، وتغلغلت في احشاء الشام ومصر وجزيرة العرب . واقتفت في عهد العثمانيين آثار العرب في افريقية حتى حدود المغرب الاقصى . يُعرف هذا الدور باضطراب حبال الامن ورقود التجارة وتوقف العلوم وتقهقر الزراعة والصناعة لاسباب كثيرة اهمها ان دلوف قبائل الترك والتتر الى هذه البلاد كان متقطعاً بطيئاً . فما يستقر منهم قوم في احد هذه البلاد حتى يناجئهُ قوم آخرون ، ينازعونه سلطانه ويحلُّون مكانه . فمن آل بيراق الى قره قويون ، الى طولون الى اخشيد الى بويه الى سلجوق ، ومن الاتابك الى المماليك البحرية والبرية الى بني عثمان . تخللت هذه الممالك بعض الحكومات العربية والكردية كالحمدانيين والفاطميين والايوبيين فتنفست في عهدهم البلاد ومصرت الامصار ونشطت الزراعة والصناعة من عقالها وردَّت غارات البدو المهاجم من الشمال تحت لواء الروم ، ومن البحر المتوسط باشارة رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، وبدافع التعصب والانتقام

هذه هي بعض الاسباب التي انضبت مناهل الثروة واعنتت النفوس في عهد المغول . على انهُ لا يجوز ان نعزو لهم كل اسباب تأخرنا ، ونحملهم اعباء هذا الجرم الكبير . نعم قد ظلم المغولُ واستبدوا ، واذهبوا النفوس وافقروا البلاد . غير انهم ليسوا كل السبب في ضعة الشرق الحالية . أرى أن السبب اعظمهُ يعود الى انتباه اوربة في عهد خمولنا . فلو انتبهت اوربة في عهد شباب الشرق يوم كانت حضارتهُ مضيئة وهاجة ، لما تركها تفعل بدون علمه ومؤازرته . ولما خفيت عليه اسرارُ تفوقها ، ولما قصَّر في طلب الوسائل التي تدرأ عنهُ خطر مزاحمتها ، ولسعى الى موازاتها ومضاهاتها بكل ما لديه من قوة وحيلة وذكاء . ولولا أن قوضت الصناعة والتجارة الحديثان قواعد الصناعة والتجارة القديمتين لما كان اليوم ، على خمولنا ، بيننا وبينها فرق عظيم

نافذ غنام